

أحاديث رمضان ١٤١٥ - قراءات قرآنية - سورة محمد والأنعام وص والقصص وطه - الدرس (٢٦- ٤٩) : أنواع الحقائق في القرآن الكريم - مباشرة وتقريرية.  
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٥-٠٢-١٩٩٥

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

#### تنوع الأساليب في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الكرام ؛ هذه القصة ؛ قصة سيدنا موسى مع فرعون من أطول القصص في القرآن ، من : للتبويض ، لأن يوسف أطولها ، ومن أكثرها تكراراً في القرآن ، وفي كل مرة جاءت هذه القصة من زاوية خاصة .  
الذي يعيننا أن الله سبحانه وتعالى يذكر الحقائق في القرآن بطريقتين ؛ بطريقة مباشرة ، طريقة تقريرية ، كقوله تعالى :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

[سورة محمد : ١٩]

وبطريقة قصصية تمثيلية ، الطريقة القصصية التمثيلية أطول ، لكن تأثيرها يتغلغل في أعماق النفس ، الطريقة التقريرية أقصر ، لكن قد لا تُستوعب ، فرينا عز وجل ينوع الأساليب في القرآن الكريم .

#### اختلاف الناس في الإيمان بألوهية الله عز وجل :

الذي أريد أن أقوله لكم في هذه القصة : إن إيمان الناس جميعاً بأن لهذا الكون إلهاً خالقاً ، هذه قضية مسلم بها ، لا يختلف فيها اثنان ، إلا من ركب رأسه ، وإلا من جحد الواقع :

﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

[سورة الأنعام: ٢٣]

قال :

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾

[سورة الأنعام: ٢٤]

فقضية أن تقول : إن لهذا الكون خالقاً ، هذه قضية لا تقدم ولا تؤخر ، إلا أن إبليس قال له :

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

[سورة ص: ٨٢]

لكن أين يختلف الناس ؟ يختلف الناس في الإيمان بالوهمية الله عز وجل ، أنه معنا، والأمر كله بيده ، وحركاتنا ، وسكناتنا بعلمه ، ولا يقع شيء في ملكه إلا بإرادته ، إذا آمنت هذا الإيمان ، هذا هو التوحيد ، أما الآن فأنت مخلص بقدر ما أنت موحد ، أنت مستقيم بقدر ما أنت موحد ، ترقى عند الله بقدر ما أنت موحد ، أنت ثابت بقدر ما أنت موحد ، قلبك ممتلئ طمأنينة بقدر ما أنت موحد ، أي كل خيرات الدين لا يجنيها إلا الموحد ، وهذه القصة من ألفها إلى يائها تؤكد لكم : أنه لا إله إلا الله .

مثلاً : صندوق في نهر النيل ، كيف يتحرك هذا الصندوق ؟ يتحرك ، ثم يقف أمام قصر فرعون ، من ألهم امرأة فرعون أن تنزل إلى الشط في الوقت المناسب ؟ الله عز وجل ، من ألقى حبه في قلبها ؟ الله عز وجل ، من جعل فرعون يتساهل في هذا المولود ؟ لم لم يأمر بذبحه كما هي العادة؟ الله عز وجل ، من حرم المراضع تحريم منع لا تحريم تشريع ؟ :

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾

[سورة القصص: ١٢]

الله عز وجل ، من ألهم أمه أن ترسل أخته كي تتقصى الخبر وكيف تقول ؟ :

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ﴾

[سورة طه: ٤٠]

معنى هذا أن الأمر بيد الله ، و أن الله عز وجل أمره نافذ بدقائق الأمور ، ليس الأمر بمعنى أن الأمور الكبرى بيد الله بل أيضاً أدق الدقائق ، لذلك قالوا :

كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو

\*\*\*

سيدنا موسى قال :

﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَىٰ النَّارِ هُدًى﴾

[سورة طه: ١٠]

هناك نجاه الله عز وجل .

**الأمر كله بيد الله ؛ جليله وصغيره :**

لذلك : اجتماع الناس ، أحياناً هذه اللقاءات ، لا يوجد لقاء عفوي ، نحن نظنه لقاء عفوي ، أي لقاء صدفة ، كل شيء يقع في ملك الله عز وجل وفق تصميم دقيق .

أنا مرة أخ حكى لي قصة ، أم أمرت ابنها المصاب بمرض السرطان أن يسجل البيت ، والسيارة لأخيه ، وهذا الرجل عنده زوجة ، وعنده أولاد ، طبعاً الأم جاهلة ، لأنه توقعته أن يموت هذا الابن ، و تتزوج امرأته زوجاً آخر ، فيأخذ هذا البيت ، وهذه السيارة ، أعطت أمراً لابنها المصاب بمرض الخبيث ، فسجل هذا البيت وتلك السيارة لأخيه ، الابن أيضاً جاهل ، لأنه انصاع إلى أمر لا

يرضي الله عز وجل ، بعد شهرين توفي الابن المصاب بهذا المرض ، وبعد شهر آخر توفيت أمه ، فجاء الأخ الذي كتب له البيت والسيارة ، فاعتصب البيت ، وطرد امرأة أخيه وأولادها ، وأخذ السيارة ، ولم يعطهم شيئاً أبداً ، ظلم كالشمس في رابعة النهار .

حسناً : السيارة تعطل فرامها من مكان مرتفع ، ومنحدر شديد ، وانحدرت إلى ساحة عامة ، وفيها مئات السيارات ، فقتلت كل من فيها ، هم هؤلاء الذين اغتصبوا هذا البيت ، هناك حكمة مطلقة ، لكن نحن لا نعلم .

أحياناً : نعلم قصة على سبيل المثال ، فلذلك : يجب أن تعلم أنه لا يوجد حركة ، ولا يوجد سكنة ، لا يوجد مرض يقع ، ولا يوجد حادث يقع ، ولا يوجد شيء يقع ، إلا بعلم الله . هذه القصة هدفها : أن تؤمن أن الأمر كله بيد الله ؛ جليله وصغيره ، عظيمه وحقيقه ، قريبه وبعيده ، إن الأمر لله .

فانظر إلى هذا الطفل في الصندوق ، حركة الصندوق ، حركة امرأة فرعون ، قلب امرأة فرعون ، تساهل فرعون ، المراضع امتنعت عن إرضاع هذا الغلام ، أخته تقصته و هكذا .

حسناً : الآن فرعون - فرعون اسم على مسمى - لم لم يقتل موسى ؟ الموقف غير منطقي ، قال له : نحن نعمل موعداً متناظراً ، هذا ليس سلوك فرعون ، اقتلوه ، كلمة واحدة ينهي الأمر ، لا يوجد حاجة للعي ، معنى ذلك : أن فرعون مسير أيضاً ، أوهمه ، أخذ موقفاً أن يعمل مناظراً أمامه ، لماذا المناظرة ؟ هكذا عبد الطغاة ، لا يوجد داع أن تتناظروا ، إذاً لماذا استخدم هؤلاء السحرة ؟ هذا الساحر متفوق بالسحر ، وجد أن هذا الشيء الذي أمامه ليس سحراً ، هو أتى بأفعى ولونها ، أي أتى بجلد أفعى ، وركبه على أنبوب مطاطي ، وضع فيه زئبق ، -هكذا يقولون- ، ووضع على أرض ساخنة الحرارة ، الزئبق تمدد ، هو رجراج ، فهذه الأفاعي تحركت ، جاء الثعبان الذي كان عصا قبل قليل ، فالتقم كل هذه الأفاعي ، لأن المعجزة إذا لم يكن الإنسان متفوقاً بها فلا يؤمن بها ، لو جننا بهذا الشيء لإنسان غير ساحر لا يؤمن ، أما هذا ساحر فيعرف كل شيء ، فلما رأوا أن هذه العصا أصبحت ثعباناً مبيناً ، وأكلت كل هذه الأفاعي المصطنعة- لذلك سحرة فرعون حرقوا المراحل - الله عز وجل أراهم رؤية فأصبحوا من كبار المؤمنين بثوان .

هذا الصحابي الجليل الذي جاء زيد الخيل ، جاء إلى المدينة ليستطلع أمر النبي ، دخل عليه المسجد ، والنبي يخطب ، فاستمع إلى الخطبة ، والنبي قال له : " من أنت ؟ قال له: أنا زيد الخيل ، فقال عليه الصلاة والسلام : بل أنت زيد الخير ، النتيجة : كان مشهوراً بالجاهلية ، رجل شهيم ، وجميل الصورة ، وكان إذا ركب الفرس ، لامست رجلاه الأرض لطوله، ولجماله ، ولبهائه ، فهذا النبي الكريم قال له : يا زيد ، ما وصف لي رجل فرأيتته إلا رأيتته دون ما وصف إلا أنت يا زيد . النبي كرمه ، وأخذه لبيته ، أعطاه وسادة ، قال له : اتكئ عليها ، قال له : والله لا أتكئ في حضرتك . متى صار عنده هذا الأدب ؟ أحياناً الإنسان يحرق المراحل ، لذلك الشيخ يقولون : القضية لا لمن سبق ، ولكن لمن صدق .

أي المدة الزمنية ليس لها قيمة ، يكون شخص مثلاً بجامع مدة ثلاثين سنة ، يأتي إنسان من ثلاثة أيام يسبقه ، فكلما ازداد الصدق المرحلة تصغر ، أما بنظام تعليمنا نحن فيوجد اثنتا عشرة سنة ، اثنتا عشرة سنة بكالوريا ، و إن كنت ذكياً جداً عليك أن تجتاز هذه السنوات ، بعض البلاد متقدمة بالنواحي المادية ، من أجل أن يرعوا العباقر ، اثنتا عشرة سنة يصبحون عشر سنوات ، أربع سنوات لسانس يصبحون ثلاث ، إذا كان الإنسان متفوقاً ، أما عند الله عز وجل فإذا إنسان تفوق زيادة ، الخمسون سنة يصبحون خمس دقائق .

فهؤلاء السحرة فجأة لما رأوا أن هذا ليس بسحر ، إنما هي معجزة ، وأن هذا رسول الله ، آمنوا . يبقى الموضوع ؛ ما الذي جعل فرعون يصغر أمام موسى ، ويناظره ، ويسأله ، ويجيبه ، ويقوم موعداً يوم الزينة ، يوم الجمعة مثلاً يوم العيد ، وأن يأتي بالناس جميعاً من كل أمصارهم ، لتكون مناظرة بين سحرة فرعون وبين سيدنا موسى ؟ وكيف أن هذا السحر ينتصر ؟ هذا فعل الله عز وجل .

### قلوب العباد بيد الله :

الآن نستنتج أيضاً من قصة يوسف أن الأمر بيد الله عز وجل ، اثنا عشر أماً أرادوا أن يضعوا أخاهم في غيابة الجب ليموت ، فكان عزيز مصر . قال :

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾

[سورة يوسف: ٢١]

حسناً الآن : حتى الأحداث التي نسمعها كل يوم تؤكد هذه الحقيقة ، تجد دولة عظمى مثل الاتحاد السوفييتي ، لا يمكن أن تنهار بالعقل أبداً ، قلعة من قلاع الكفر ، ومع ذلك تهاوت كبيت العنكبوت ، هذه من آيات الله ، والآن الناس يعظمون أمريكا كثيراً ، والخبراء يتنبؤون لها بالسقوط بعد ثلاثين عاماً ، أو بعد عشر سنوات من الداخل ، لأن الله كبير ، فلذلك موضوع أن تنسى أن الله موجود ، والأمر كله بيده ، موضوع كبير جداً .

كل ما أريد أن أقوله لكم : يجب أن تعلم أن الأمر كله بيد الله ، عندما أنت تخلص ، عندما أنت توحده ، تجد نفسك أخلصت بشكل لا شعوري ، عندما توحده استقمت ، عندما توحده لم تعد تتناقض ، عندما توحده تتجه إلى الله وحده ، عندما توحده تتطرق إلى العمل الصالح .

القصة كلها عوضاً عن أن تكون موزعاً بين مئة جهة ، قال لك : ليس لك إلا إله واحد ، هذه القصص كلها ، لا يوجد قوي مع الله عز وجل ، ولا يوجد ذكي مع الله ، ولا يوجد إنسان مع الله ، أبداً ، مع الله لا شيء ، لكن أحياناً تتوافق خطة الكافر مع خطة الله عز وجل ، والتعبير الأدق أن خطة الله تستوعب خطة الكافر ، تجد الكافر فيما يبدو لك أنه أمر ونفذ ، هو أمر ونفذ ، لكن هذا الأمر والتنفيذ ورد بخطة الله عز وجل ، لأن الكافر لا يمكن أن يفعل شيئاً ما أراد الله ، لا يمكن ، هذا معنى :

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾

[سورة العنكبوت: ٤]

الكافر لا يفعل شيئاً ما أَرَادَهُ اللهُ ، ولا يستطيع التقلت من قبضة الله ، الأمر كله بيد الله ، لذلك :

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى﴾

[سورة طه: ٤٥]

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾

[سورة طه: ٤٦]

هناك نقطة أدق من ذلك ؛ حتى قلب فرعون بيد الله عز وجل ؛ أحياناً يخوفه ، أحياناً يلينه ، أحياناً يجعله قاسياً .

الآن : أنت موظف بيد الله ، تجد تساهلاً معك ، لا تفهم ما السبب ؟ وأحياناً يؤدبك الله ، لأن قلوب العباد بيد الله عز وجل ، الذي يوافق ، يكون الله قد ألهمه أن يوافق ، والذي يرفض ألهمه الله أن يرفض ، فقلوب العباد بيد الله ، وأنت بيد الله عز وجل .

وتجد أحياناً الأحداث تجري على خلاف المنطق المادي ، وهذا الشيء ثابت ، كل يوم يوجد ألف قصة تؤكد ذلك ، أحياناً الله ينصر بالرعب ، أحياناً القوي يجعل قلبه هواء فينهار ، أحياناً الضعيف يقوي له قلبه فيقوى ، لا يوجد قاعدة ، القاعدة : أن الأمر بيد الله ، و أن نهاية العلم التوحيد .

### ثمرات الدين كلها تحتاج إلى التوحيد :

الحقيقة : لا يوجد في القرآن غير التوحيد ، لما ربنا يريد أن يلخص القرآن كله بكلمة ، يقول لك :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾

[سورة الكهف: ١١٠]

لما الله يريد أن يلخص دعوة الأنبياء كلها :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾

[سورة الأنبياء: ٢٥]

ولما الله يريد أن يلخص الدين كله ، يقول لك :

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

[سورة محمد: ١٩]

﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

[سورة المؤمنون: ٣٢]

الإخلاص أهم شيء ، أنت مخلص بقدر ما أنت موحد ، الاستقامة أهم شيء ، أنت مستقيم بقدر ما أنت موحد ، السعادة النفسية أنت سعيد نفسياً بقدر ما أنت موحد ، كل ثمرات الدين تحتاج إلى التوحيد ، وهذه القصة كلها توحيد ، تجده يتحرك حركة غير معقولة ، على خلاف منطق ، فرعون جبار ، أي الطغاة لا يهتمهم ، القتل سهل جداً ، بكلمة ينهيه .

قلت لكم مرة : الحسن البصري لما دخل على الحجاج ، الحجاج طلبه ليقطع رأسه، والنطع مُد ، والسياف جاهز ، أعطى أمراً بأن يأتوا به ، فلما دخل ، وجد الحجاج نفسه يرحب به و يقول له : أهلاً ، أهلاً بأبي سعيد ، تفضل ، قربه ، قربه ، حتى أجلسه على سريره .

حسناً : أنت أتيت به لتقتله ، ما الذي حدث معك في الداخل ؟ أجلسه على سريره ، وسأله سؤالاً ، وعطره ، وطلب منه الدعاء ، وشيعه إلى باب القصر ، هذا الحجاب اختل توازنه، الحجاب والسياف لحقوا به : يا أبا سعيد ، لقد جيء بك لغير ما فعل بك !! قال له : والله قلت: يا رب ، يا ملاذي عند كربتي ، ويا مؤنسي عند وحشتي ، اجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً ، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم .

انقلب الوضع كله ، عملك مع الله ، مع الله وحده ، لا يوجد أحد قوي ، ولا يوجد أحد جبار ، ولا يوجد أحد طاغية .

ورد في الحديث القدسي : " أنا ملك الملوك ، ومالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فإن العباد أطاعوني ، حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة ، وإن هم عصوني حولتها عليهم بالسخط والنقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، وادعوا لهم بالصلاح ، فإن صلاحهم بصلاحكم " .  
إن الأمر كله لله .

## التوحيد هو نهاية العلم :

وأدق آية في هذا الموضوع : الله أمرك أن تعبده ، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله بيده . قال لك :

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾

[سورة هود: ١٢٣]

هذا القرآن بين يديك ، يقول لك : لا يوجد غيري يا عبدي ، لا تغلب نفسك ، إذا رضيت عليك عدوك يخدمك ، وإن غضبت عليك أقرب الناس إليك يتخلى عنك ، وهذا الشيء ثابت .  
من أقرب الناس له ؟ ابنه أحياناً يتخلى عنه ، زوجته تتخلى عنه ، وإذا الإنسان استقام ، وأرضى الله عز وجل ، أشد أعدائه خصومة تجده يخدمه و ينصحه .

أنا أريد أن أقول لكم : إن المسلم يجب ألا يكون ضعيف المعنويات ، إذا وجد الطرف الآخر قوياً جداً ، هو ضعيف جداً ، الطرف الثاني قوي بالله ، وأنت أيضاً قوي بالله ، أي الأمر بيد الله عز وجل ، أنت لست مكلفاً أن تأتي بالمعجزات ، مكلف أن تجتهد بإعداد ما هو متاح ، وعلى الله الباقي .

أنتم الآن بالوضع العام ، هناك دول عظمى ، دول صغيرة ، متخلفة ، متنامية ، بطرف إفريقيا ، هذه تستطيع أن تحارب أمريكا وتغلبها ؟ هذا الشيء خلاف منطق التاريخ ، الذي حدث في مطلع الإسلام هكذا ، بداءة ، عرب ، حفاة ، متخلفون ، في أعماق الصحراء ، يغلبون دولتين عظيمتين ،

حضاريتين ، هذا نفس الترتيب ، نفس النسبة إطلاقاً ، فلذلك القصة هنا : أحياناً تتحرك الأحداث على خلاف المنطق المادي ، على خلاف منطق توازن القوى ، هذا هو الدين ، الدين أن توحد ؛ ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

والتوحيد نهاية العلم ، والدين كله توحيد ، وأنت بالتوحيد تستقيم ، وتسعد ، وتقوى نفسك ، وترتفع معنوياتك ، وتخلص ، وترقى ، و لكن قبل أن تتحرك ، قل : لا يوجد إلا الله عز وجل ، الله يعطي ويمنع .

سمعت البارحة قصة ، إنسان طلب من مئة حاج أن يعاونهم معاونة بإجراء بعض المعاملات ، قال لهم : أريد من كل واحد منكم مئة ليرة ، قالوا له : حسناً ، لما أخذ الجوازات ، صار معه مئة جواز ، قل لهم : أريد ألفاً ، لا أعطيكم الجواز إلا بألف ليرة ، أرغموا على ذلك ، ورفعوا دعوى عليه ، هذا اشترى فيهم سيارة ، عمل فيها حادثاً ، نجا بأعجوبة و أصبحت السيارة كلها ملقاة على قارعة الطريق .

تلاحظ أن الأمر كله بيد الله عز وجل ، تستقيم ، تجد الطريق إلى الله سالكاً ، هذه كل القصة ، إذا أنت لم تؤذ أحداً ، تجد الله راضياً عنك ، إذا شعرت أن الله راض عنك ، حققت كل شيء ، أما إذا كنت تشعر أنه من الممكن أن تعمل شيئاً الله لا يعلم به ، أو من الممكن ألا يحاسبك الله عليه ، طبعاً لا تستقيم ، التوحيد هو نهاية العلم .

## والحمد لله رب العالمين